


التاريخ السياسي والعمراني لمدينة تلمسان في العصر الوسيط

د/ موشموش محمد 

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الملخص:

نتناول في هذا المقال التطور العمراني لمدينة تلمسان، وذلك من خلال التعريف بأهم الدول والإمارات التي كانت المدينة تابعة لها، وكذلك التعريف بأهم المنشآت العمرانية التي بنيت في العصر الوسيط في هذه المدينة.

الكلمات المفتاحية: التاريخ السياسي، العمران، تلمسان، العصر الوسيط.

Résumé:

Dans cet article, nous parlons du développement urbain de la ville de Tlemcen, à travers la définition des États les plus importants sous lesquels la ville était sous son autorité politique, ainsi que des structures urbaines les plus importantes construites au Moyen Âge dans cette ville.

Les mots clés: Histoire politique ,Urbanisation, Tlemcen, Moyen age.

المقدمة:

عرف المغرب الإسلامي حراكا عمرانيا واسعا منذ استقرار الأوضاع السياسية وفتح الأندلس سنة 92هـ، وبه كذلك نشأت دول وإمارات سعت لبناء المدن على ارض عذراء مثل مدينة فاس أشير ومراكش وغيرها، كما مصرت تجمعات بشرية أخرى، حيث تحولت من قرى إلى أمصار مثل مدن الجزائر والمدينة ومليانة، ومنها من استفادت من التراكم الحضاري للحضارات التي انطوى المغرب تحت سلطتها المركزية، منها الحضارة الرومانية والبيزنطية. ومدينة تلمسان من المدن التي تأثرت بالحضارات التي مرت عليها، واستفادت من إرثها العمراني، وتوسعت واستبحر عمرانها عبر جميع الفترات التاريخية التي مر بها المغرب الإسلامي ومن خلاله المغرب الأوسط. من خلال هذه الدراسة سوف نتناول المراحل التاريخية والعمرانية التي مرت بها مدينة تلمسان من مدينة رومانية إلى قاعدة المغرب الأوسط.

1- التاريخ السياسي لمدينة تلمسان

أهل الموقع الجغرافي الإستراتيجي مدينة تلمسان⁽¹⁾ أن تكون مطمعا للدويلات الإسلامية بالمغرب الإسلامي، ومقصدا للمجموعات البشرية، والقبائل البربرية والعربية، حيث دخلها أبو المهاجر دينار (55-62هـ / 675 - 682م) على زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان بعد معارك ضارية مع البيزنطيين، وبالقرب من مدينة تلمسان⁽²⁾ ولد الحلف الأخوي الذي جمع كلا من أبي المهاجر دينار وكسيلة بن لمزم الأوربي، ولتخليد هذه الذكرى، شرع أعوان أبي المهاجر في حفر الينابيع كثيرة عرفت في المصادر التاريخية بعيون أبي المهاجر، ثم تقلبت بين أيدي الفاتحين المسلمين من ولاية عقبة بن نافع الثانية (62هـ - 64هـ / 682م - 684م) إلى غاية عهد الولاة من الأمويين ابتداء من سنة (95هـ / 714م)⁽³⁾، ثم تأثرت بالتيارات المذهبية التي ظهرت بالمغرب الإسلامي بدءا عصر الولاة الأمويين والعباسيين، وكان النشاط الصفري أول نحلة برزت بالعداء للخلافة الأموية منذ سنة (122هـ / 740م)، وتسببوا في إنهاك قوات الولاية بإفريقية، وكذلك قوات الخلافة الإسلامية، ولم يستطع الولاة الأمويين الثأر

لهزائمهم إلا عندما وليّ الأمر حنظلة بن صفوان الكلبي حيث انتصر في معركتين حاسمتين بجوار القيروان سميت احدهما معركة القرن، والثانية معركة الأصنام سنة (126هـ / 744م)، وقتل زعماء الصفرية عبد الواحد الهواري، وعكاشة ابن أيوب الفزازي، وفر أبو قرّة اليفرني الصفرى إلى مدينة تلمسان واتخذها عاصمة لإمارته بعد مبايعته سنة (140هـ / 757م) ⁽⁴⁾. وفي سنة (150هـ / 767م) خرج منها ودانت للمغرويين ⁽⁵⁾ إلى غاية دخول الأدراسة إليها ⁽⁶⁾.

أ- في الدولة الإدريسية: (172 - 311 هـ / 788 - 923م).

تعد الدولة الإدريسية ⁽⁷⁾ أول إمارة إسلامية انطوت مدينة تلمسان تحت سلطتها، ففي سنة (173هـ / 789م) خرج إدريس بن عبد الله برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبني يفرن، ونزل بخارجها، فأتاه أميرها محمد بن خزر المغراوي فطلب الأمان، فأمنه إدريس بن عبد الله، وبايعته جميع قبائل زناتة ⁽⁸⁾، فدخل مدينة تلمسان صلحا وأمن أهلها وبني مسجدها، وكانت المدينة تعرف بأغادير وهي النواة الأولى لمدينة تلمسان الإسلامية، ويمكن أن نشير أنه لم يتبق من أثار المدينة الإدريسية إلا أطلال المسجد (المئذنة تعود للفترة الزبانية)، ويقول ابن أبي زرع: ".... وصنع فيه منبرا وكتب عليه (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومئة) ⁽⁹⁾.

وفي سنة (299هـ / 911م) سار إدريس بن إدريس بن عبد الله إلى مدينة تلمسان، فنظر في أحوالها وأصلح أسوارها وجامعها، وأقام بها مدة ثلاث سنين ⁽¹⁰⁾.

ب - في الدولة المرابطية والموحدية: (472 - 668 هـ / 1079 - 1269م).

بعد نهاية الدور الأول للدولة الإدريسية، وخروجهم من فاس، وانتقال بقاياهم إلى قلعة حجر النسر في شعاب جبال الريف استبد بالأمر موسى بن أبي العافية ⁽¹¹⁾ مؤيدا في ذلك الفاطميين، ولكن الأمر لم يستقر له طويلا، لأنه لم يستطع إقامة النظام، فلم تلبث وحدة القبائل التي أقامت دولة الأدراسة أن انفردت عقدها، فعاد المغرب الأقصى والمغرب الأوسط إلى الفوضى،

وسيطرت عليه القبائل الزناتية، معظمهم من مغراوة وبنو يفرن، وأخذت زندقة برغواطة تنشط من جديد، وتسلم مقاليد المغرب الإسلامي الزيريين من طرف الفاطميين⁽¹²⁾، ونشب صراع سياسي وعسكري كبير بالمغرب الإسلامي، أثر سلبا على التطور الفكري والعمراني للمغرب الأوسط عموما دام حوالي سبعين سنة إلى غاية خروج المرابطين من رباطهم في جنوب المغرب الأقصى، وزحفوا نحو الشمال.

لما دانت إمارة المرابطين ليوسف بن تاشفين عمل على استكمال الفتح فكان له ذلك، ففي سنة (460هـ/1063م) فتح بلاد غمارة، وفي سنة (462 هـ / 1070 م) نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة، وبنو يفرن ومكناسة، ومن نجا منهم من القتل فر إلى تلمسان، وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين عدوة القرويين والأندلسيين، ولازال يوسف بن تاشفين يفتح المدن، ويدوخ القبائل إلى غاية سنة (473 هـ/1081م - 1082م)، فزحف على الريف، وافتتح مليلة، وحرب مدينة نكور، ثم زحف على بلاد المغرب الأوسط في نفس السنة (473هـ/1082م - 1083م)، ففتح مدينة وجدة، وبلاد بني يزناسن، ثم مدينة تلمسان، واستلحم من كان بها من مغراوة، وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان، وأنزل محمد بن تنعمر بها في عساكر المرابطين، واختط بها مدينة تكرارات بمكان محلته ثم افتتح وهران، وجبل الونشريس، وواد شلف⁽¹³⁾، ومدينة تنس، ووصل إلى غاية مدينة الجزائر من بني مزغنة، ورجع إلى مراکش سنة (475هـ / 1085م)، ودان المغرب الأوسط للمرابطين.

بقيت بمدينة تلمسان مرابطية إلى غاية استيلاء الحماديين عليها وذلك لما أجاز الأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس الجواز الرابع سنة (497هـ / 1107م)، وهذا بسبب خلاف وقع بين المنصور بن ناصر الحمادي وتاشفين بن تنعمر أمير تلمسان فصالحه يوسف بن تاشفين، واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة (497هـ / 1107م).

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين (400 هـ - 500 هـ / 1010م - 1110م) خلفه ابنه علي بن يوسف بن تاشفين (477هـ-537هـ / 1085م - 1143م)، ولزم المغرب الأوسط طاعة المرابطين، وكان حد الدولة المرابطية شرقا مدينة الجزائر، إلى غاية وفاة الأمير علي بن يوسف سنة (537هـ / 1147م)، وخلفه ابنه تاشفين بن علي، واستلحم أمر الموحيدين (14).

ولما علم عبد المؤمن بن علي (524هـ- 1130م/558هـ-1163م) بوفاة علي بن يوسف بن تاشفين وخروج بعض القبائل عن قبيلة "المتونة" حاصر مدينة سبتة، ودخل إلى تلمسان، ثم فتح مدينة فاس بعد تسعة أشهر من الحصار سنة (540هـ / 1150م - 1151م) (15)، ثم غزا عبد المؤمن بن علي الكومي غزوته الكبرى على بلاد المغرب، فصار يتبع جيوش المرابطين إلى أن هلك تاشفين بن علي بوهران (16) سنة (541هـ / 1151م - 1152م) ثم فتح مدينة مراكش سنة (541هـ / 1151م - 1152م)، وبالتالي أصبح عبد المؤمن بن علي سيد مراكش والمغرب كله، ثم جهز عبد المؤمن بن علي جيشه لفتح الأندلس ففتحها، وكان ذلك سنة (555هـ / 1168م)، وأمر بتحسين جبل الفتح ثم دان له المغرب الأوسط، وإفريقية، والمهدية سنة (555هـ / 1168م) (17).

ج - في الفترة الزيانية- الحفصية- المرينية: (592 - 981هـ / 1196 - 1573م)
لما أذن الله بسقوط الدولة الموحدية بدأ الشقاق والطمع يلجج إلى قلوب القبائل العربية والبربرية على السواء في الخروج عن عصا الطاعة، لعلمهم أنّ الدولة الموحدية قد تصدع كيانها، وانكسر جيشها بعد معركة حصن العقاب بالأندلس سنة (609هـ / 1212م) (18). بدأت بوادر الاستقلال عن السلطة المركزية بمراكش تلوح ونشأت أول ما نشأت الدولة الحفصية بتونس (19)، واستقلت عن الدولة الموحدية سنة (627هـ/1230م)، ثم تلتها الدولة الزيانية، وكان من أكبر قادتها ومؤسسي الدولة يغمراسن بن زيان (633هـ - 1236م / 681هـ - 1283م) حيث تولى أمر بني عبد الواد بعد موت أخيه أبي عزة زكدان بن زيان سنة (633هـ/1236م)،

فاستولى على تلمسان وجعل منها قاعدة لدولته ووسع رقعتها على حساب دولة الموحدين الضعيفة، إلا أنّ يغمراسن بقي يدعو للخليفة بمراكش، ولكن الموحدين أرادوا نزع مدينة تلمسان منه، وخلعه منها فحاصروها، وخلال ذلك طلب يغمراسن الأمير أبا زكريا الحفصي (627هـ- 1230م / 647هـ- 1249م) راغبا في القيام بدعوته، فدانت الدولة الزيانية الفتية إلى الحكم الحفصي، ولكن روح الانفصال بقيت قائمة، وتحسدت بعد مقتل السعيد علي بن إدريس الموحدي (640هـ- 1242م / 646هـ- 1248م) بعد محاصرته ليغمراسن بن زيان بقلعة تامزردكت، و ذلك سنة (646هـ / 1248 م) (20).

وقامت بالمغرب الأقصى الدولة المريني (21)، ونتيجة لهذا التمهض الجديد الذي عرفه المغرب الإسلامي كبر الصراع على الأماكن الإستراتيجية للمغرب الإسلامي خاصة موانئ المغرب الأوسط بل تعدى ذلك ليشمل الصراع على مدينة تلمسان التي كانت نقطة انتقال السلع والذهب من الصحراء، وبلاد السودان إلى الشواطئ الأندلسية والجزر المتوسطية.

وعلى الرغم من هذا الصراع لم تتغير الخريطة الجيوسياسية للمنطقة جذريا، ولم تتمكن أي دولة من فرض سيطرتها المطلقة والمستمرة على بقية الدول، لأن الظروف العامة لم تكن مواتية، أو بسبب توازن القوى، إلا أن هذا الصراع خلف حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني في منطقة المغرب الإسلامي برمتها وأهدر طاقات كبيرة، في وقت كان العالم الأوروبي يشهد تحولات سوف تكون لها انعكاسات خطيرة على مستوى توازن القوى النصرانية والإسلامية، وكذا بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشمالية والجنوبية.

لما استقل أبو زكريا الحفصي بأمر إفريقية بايعته قبيلة بني توجين (22)، فحين ولى يغمراسن رأسه إلى مراكش وتقلد طاعة بني عبد المؤمن بن علي، وكان الرشيد الموحدي (630هـ- 1232م / 640هـ- 1242م) قد ضاعف له البر، وذلك مند سنة (637هـ / 1239م- 1240م)، خاصة لما تولى يغمراسن الحرب ضد بني مرين الطامعين في ملك المغرب الأقصى، ولكن هذا الولاء انفض عند أول حملة سيرها السلطان الحفصي أبو زكريا إلى تلمسان، حيث

فرض سلطانه عليها، و حوصرت المدينة عدة أيام قبل أن تقتحم أسوارها، ويعمل فيها وفي أهلها القتل والنهب والتخريب، وضياع أملاك، وذلك في أواخر سنة (639هـ/1241م)، وأوائل سنة (640هـ/1242م) (23)، وفر يغمراسن منها، وجهاز السرايا لمهاجمة معسكر الحفصيين، فعلم أبو زكريا أنه لا طاقة له في محاربتة، فراجعه بالإسعاف، واتصال اليد على صاحب مراكش، فخطب يغمراسن أبا زكريا الحفصي راغبا في القيام بدعوته، فقبلها أبو زكريا، وعهد إليه ولاية تلمسان وأعمالها، ولكن أبا زكريا أراد أن يوقف جماح يغمراسن في التوسع بالمغرب الأوسط فجعل بين ذلك كل من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي وعلي بن منصور المليكشي على قومهم، وأوطأهم، وعهد إليهم بذلك، وأذن لهم باتخاذ الألة، والمراسيم السلطانية على سنن يغمراسن نظيرهم (24).

ويبدو أن هذا الصلح ظل قائما والدعوة لبني حفص على المنابر محترمة، إلى أن عطلها عثمان بن يغمراسن (681هـ - 703هـ/1282 - 1303م) أواخر القرن السابع الهجري مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الطرفين من جديد.

وظل التوتر يطبع العلاقات الزيانية والحفصية، إما بسبب النزاع على بعض الأقاليم والمدن كما هو الحال في الصراع الذي دار بينهما سنة (732هـ/1331م) للسيطرة على بجاية، حيث وجدت السلطة الحفصية دعما من السلطة المرينية بقيادة أبي الحسن (731هـ/1330م- 1351م)، أو لفرض الشرعية كما حدث مع الحملات العسكرية على تلمسان لاحقا خلال القرن التاسع الهجري (25). لم تكن علاقات حسن الحوار بين الزيانيين، والمرينيين هي الصفة السائدة والدائمة، بل كانت حروب، وتطاحن، وحصار، ومن خلال ذلك تنقلب مغراوة وبني توجين على السلطة الزيانية، لما يناههم من التنكيل من طرف بني عبد الواد في كل مرة عند حلول السلم مع بني مرين.

أثناء الحصار الذي ضربه عثمان بن يغمراسن على قلعة بني سلامة من بلاد توجين سنة (698هـ/1298م - 1299م) زحف يوسف بن يعقوب (685هـ - 706هـ/1286م -

1307م) بالجيش المريني على تلمسان، ولولا تدارك عثمان بن يغماسن الأمر لفتحها المرينيين، فدخلها عثمان بن يغماسن وتحصن بها، ونزل يوسف بن يعقوب بجيشه على الهضبة المطلّة على تلمسان، واختط مدينة المنصورة، وحاصر تلمسان سنين وسرح عساكره لافتتاح المغرب الأوسط، وكان له ذلك.

خلال حصار تلمسان من طرف المرينيين توفي عثمان بن يغماسن (681هـ - 1283م / 703هـ - 1303م)، فخلفه أبو زيان محمد (703هـ - 1303م / 707هـ - 1308م)، ودام الحصار ثماني سنين وثلاثة أشهر⁽²⁶⁾، نال من أهل تلمسان، من الجهد، والجوع ما لم ينل أمة من الأمم، وفي نفس الوقت اتسعت خطط المنصورة⁽²⁷⁾ ودام الحصار حتى قتل يوسف بن يعقوب من طرف أحد الحصيان أسخطته بعض النزعات الملوكية، وذهب الله بجحيم الحصار على الزيانيين⁽²⁸⁾. بعد انتهاء المحنة نهض أبو زيان مستردا ما أخذه منه المرينيون من أعمال، ففي سنة (706هـ / 1307م - 1308م) خرج من تلمسان مع أخيه أبي حمو موسى الأول فقصد بلاد مغرّوة، وشرّد من كان هناك منهم في طاعة بني مرين، وأخذ الثغور من أيدي عمالهم، ثم عقد عليها لمسامح مولاه، ورجع عنها⁽²⁹⁾.

في فترة حكم أبي زيان انقطعت الدعوة للحفصيين بتلمسان، واستمرت على ذلك إلى غاية وفاة أبي زيان، ولما خلفه أخوه أبو حمو موسى الأول (707هـ - 1308م / 718هـ - 1318م)، وكان شديد البأس اتبع سيرة أخيه أبي زيان في قطع الدعوة للحفصيين، وعقد السلم مع سلطان بني مرين لأول دولته⁽³⁰⁾.

ولما نشب الخلاف بين السلطان أبي حمو موسى الأول مع أمير الدولة المرينية أبي سعيد عثمان بن يعقوب (708هـ - 1308م / هـ - 1310م) بسبب تدخل أبي حمو موسى الأول في خلاف حدث بين السلطان المريني وأخوه يعيش بن يعقوب⁽³¹⁾ زحف أبو سعيد على تلمسان وحاصرها، وغلب على ضواحيها. ولما انكشفت المحنة على تلمسان نهض أبو حمو

موسى الأول واستعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان زحف على بلاد مغراوة، وكان ذلك سنة (707 هـ / 1307 م)، لكن أبا تاشفين سولت له نفسه فدخل في صراع مرير مع أبيه انتهى سنة (718 هـ / 1318 م) بقتله (32).

كان أبو تاشفين (718-1318م / هـ-1337م) مولع بالبناء وذكر ذلك ابن خلدون بقوله: "... وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك وأرى عليه، فاحتفلت القصور و المصانع في الحسن ما شاءت..." (33)، لكن هذا الأمن و الاستقرار الذي عرفته تلمسان ودام ما يقارب عشرون سنة انتهى بالحصار الذي ضربه المرينيون على تلمسان بقيادة أبي الحسن المريني، ومقتلهم لسليمان الدولة الزيانية أبي تاشفين، وملك بني مرين تلمسان، وبلاد توجين، ومغراوة، وذلك سنة (737 هـ / 1337م)، وانقطعت دولة بني عبد الواد إلى غاية إحيائها من طرف أبي سعيد عثمان سنة (749 هـ / 1348م) (34).

خلال الحصار الذي فرضه أبو الحسن على تلمسان، ومسيرته إلى فتح إفريقية، وما كان له فيها من مشاكل وصعاب أثناء عودته إلى المغرب اجتمعت مغراوة وانفصلت عن الدولة المرينية إلى حين. ولما استرد أبو سعيد عثمان ملك (749 هـ - 1348م / هـ- 753 هـ - 1352م) تلمسان جعل قيادة الجيش لأخيه أبي ثابت، فلما زحف الناصر الحفصي من إفريقية على المغرب الأوسط قعدت مغراوة مع أميرها علي بن راشد عن مناصرة بني عبد الواد رغم الصلح، والمواذعة، والتظاهر على عدوهم، فأسرهما أبي ثابت في نفسه ولما هزم جيش الناصر، وقطع الطريق على السلطان المريني أبي الحسن وجه أبو سعيد عثمان جيوشه نحو مغراوة، فخرج من تلمسان سنة (752 هـ / 1351م)، و زحف على المغرب الأوسط ودخل مدينة الجزائر، وعقد عليها لسعيد بن موسى بن علي الكردي، وذلك في منتصف شهر شعبان من سنة (752 هـ / 1351 م) (35).

أثناء الحصار الذي فرضه أبو ثابت على المغراويين بجبل الظهرة بعث علي بن راشد إلى سلطان بني مرين أبي عنان فارس، وطلب منه الشفاعة والوساطة عند أبي ثابت، ولكن هذا الأخير رد الشفاعة ولم يقبلها، ولما بلغ أبو عنان نبأ مقتل علي بن راشد، جمع لغزو تلمسان، والمغرب الأوسط، وانهمز جيش بني عبد الواد عند سهل وجدة، وكان ذلك في ربيع الثاني من سنة (753هـ/1352م)، و قتل أبي السعيد عثمان، وفر أبو ثابت إلى بجاية، و أبو عنان إلى تلمسان، وطلب من صاحب بجاية أبي عبد الله حفيد السلطان أبي بكر الحفصي القبض على أبي ثابت، فكان ذلك وسلم لسلطان بني مرين، وقتل بصحراء المدينة سنة (753هـ/1352م) وغلب بنو مرين على المغرب، وانقضى ملك آل زيان من جديد إلى غاية بعثه من طرف أبي حمو موسى الثاني (36).

ولما تزعم أبو حمو موسى الثاني أمر آل زيان (760هـ-1358م/791هـ/1388م) استرجع تلمسان، والمغرب الأوسط من بني مرين (37)، ولكن الصراع تجدد مرة أخرى بين أبي حمو موسى الثاني، والسلطان المريني الجديد أبي سالم إبراهيم (760هـ-1359م/762هـ-1361م)، بسبب طلب هذا الأخير من أبي حمو موسى الثاني الكف عن المرينيين المتواجدين بالجهة الشرقية، ولكن أبا حمو موسى الثاني رفض ذلك فجهز أبو سالم الجيش المريني وزحف به على أعمال تلمسان، وحاصرها، ودخلها سنة (761هـ/1360م)، لكن أبا حمو موسى الثاني خالفه إلى المغرب فحشي أبو سالم على ملكه، فقفل راجعا إلى فاس بعد أن عين أبا زيان القبي (38) على تلمسان (39).

خرج أبو سالم إبراهيم من تلمسان إلى فاس فاستغل أبو حمو موسى الثاني هذا الوضع وزحف على تلمسان، ففر من أمامه أبو زيان القبي، واستطاع السيطرة على كل ممتلكات بني مرين، وذلك يوم 8 رمضان سنة (761هـ/23 جويلية 1360م). وفي سنة (768هـ/1366م) ثار من جديد أبو زيان القبي بدعم من المرينيين حيث تمكن من مليانة والبطحاء والمدينة، مما جعل أبو حمو موسى الثاني يزحف من جديد على هذه المدن، فأطاعته

الحواضر كنتس، ووهران، ومستغانم ماعدا الجزائر، وكان ذلك في محرم (769هـ / 1367م) (40).

احتدم الصراع بين أبي حمو موسى الثاني، وأبي زيان القبي إلى غاية زحف السلطان عبد العزيز على تلمسان، ولقيه أبو حمو موسى الثاني عند جبل بني وردنيد فاقتتلوا قتالا شديدا توفي عندها أبي حمو موسى الثاني، وكان ذلك سنة (791هـ / 1389م)، وملك بنو مرين المغرب الأوسط، واستلم أبو تاشفين عبد الرحمن الحكم (791هـ - 1389م / 795هـ - 1393م) بمساعدة الجيوش المرينية ضد أبيه أبي حمو موسى الثاني، وفي زمانه بقي المغرب الأوسط تحت الحماية المرينية، وعند وفاته قام القائم بدولته بتعين صبيا من أبنائه و قام بكفالته، وكان يوسف بن أبي حمو موسى الثاني (795هـ - 1393م / 796هـ - 1394م) واليا على الجزائر من قبل أبي تاشفين، فلما بلغه الأمر سارع بالسير إلى تلمسان فدخلها، و قتل الصبي (41) وأحمد بن العز، ولما سمع سلطان المغرب أبي العباس بالأمر تجهز لفتح المغرب الأوسط من جديد وبعث من تازى ابنه أبي فارس إلى تلمسان فملكها، وتقدم صالح بن حمو وزير السلطان أبي العباس المريني إلى المغرب الأوسط ووصل إلى غاية حدود مدينة بجاية (42)، وانقطعت دولة بني عبد الواد مرة أخرى (43).

لقد أصبحت تلمسان ومن خلالها المغرب الأوسط بعد هذه السنة تتأرجح بين أمراء من آل زيان بدعم من المرينيين تارة، أو من الحفصيين تارة أخرى، وامتدت هذه الفترة إلى غاية (870هـ / 1465م)، ومن أمراء بني زيان المؤيدين من طرف الحفصيين نجد ابن الحمرة محمد بن أبي تاشفين (827هـ - 1423م / 833هـ - 1427م) الذي استطاع حشد مؤيديه بجبال الونشريس، وبرشك، وتنس، ولكنه خلع الدعوة الحفصية بعد توطيده لحكمه، لكن الحفصيين ساندوا عليه أبي مالك عبد الواحد بن السلطان أبي حمو موسى الثاني، وذلك بعد الحصار الذي فرضه أبو فارس الحفصي (796هـ / 1394م - 837هـ - 1434م) على تلمسان، ولكن ابن الحمرة لم يستسلم للحفصيين بل حشد القبائل القاطنة بجبال تنس، وبرشك، وسهل شلف،

وزحف بهم على تلمسان ففتحها في ذي الحجة سنة (833 هـ / 1440م)، وتمكن من قتل عمه أبي مالك، ودفنه بالقصر القديم بعد 48 يوما من تملكه لتلمسان.

فزحف السلطان الحفصي أبو فارس على تلمسان فأسره، ونصب مكانه عمه أبا العباس أحمد العاقل ابن السلطان أبي هو موسى الثاني (834هـ-1430م/866هـ-1461م)، فخرج عليه "المستعين بالله أبي زيان محمد بن أبي ثابت"، لكنه لم يستطع دخول "تلمسان" فاكتفى بتأسيس إمارة عاصمتها "الجزائر" وتضم مدينة تنس، وسهل متيجة، والمدية، وكان ذلك سنة (842هـ/1439م)، ولكن أهل الجزائر ثاروا عليه وتمكنوا من قتله سنة (843هـ/1440م) (44).

وفي أواخر سنة (870هـ/1466م) زحف المتوكل على الله ابن أبي زيان من مدينة تنس، وضم إليه بقيت بلاد مغراوة، واستطاع دخول مدينة "تلمسان"، وعزل أبا العباس محمد العاقل، وخلع طاعته للحفصيين ولكنهم استطاعوا محاصرة تلمسان بقيادة السلطان أبي عمر عثمان، وتقرب منه الأمير الزياني المتوكل على الله، وزوج ابنته للأمير الحفصي أبي زكريا، وأعلنت أغلبية مدن المغرب الأوسط بيعتها للحفصيين (45).

استمرت الفتن تحتاج المملكة الزيانية لمدة طويلة، ففي عهد أبي ثابت الثالث محمد (890هـ-1485م/902هـ-1497م) بدأت المدن والقبائل تستقل عن السلطة المركزية بتلمسان، كمدية الجزائر، والمدية، وتنس، ودلس، كما أن كثيرا من القبائل العربية خلعت طاعة السلطان الزياني، وأصبحت تنضم إلى أعدائه كلما هجموا على أراضيهم، وبعد وفاته زادت الأمور سوءا واشتد خطر النصارى، واحتلت المدن الساحلية، أما سلطان الزيانيين محمد الخامس بن محمد الثابتي، فإنه رأى أن يفاوض الإسبان ويصالحهم، فوفد على ملك قشتالة سنة (914هـ/1509م)، وعقد معه الصلح و التزم بالتبعية له و بدفع ضريبة سنوية (46)

وفي سنة (920هـ/1514م) أصبح الأتراك العثمانيون يشكلون قوة عسكرية في الحوض الغربي للمتوسط بقيادة الإخوة براروس. وفي سنة (922هـ/1516م) توفي محمد الخامس،

فخلفه أبو حمو الثالث، وارتكزت سياسته على مسالمة الإيبان ومصالحتهم، هذا ما جعل سكان مدينة تلمسان يثرون عليه ويمكنوا عروج باربروس من المدينة فاستنجد أبو حمو الثالث بالإيبان، وحاصروا عروج بتلمسان، وهزموه وقتل سنة (924هـ/1518م).

وعندما توفي أبو حمو الثالث سنة (934هـ/1528م)، كان ظل الزينيين قد تقلص وأصبح أمراؤهم يرغبون في مصالحة أعدائهم النصاري، ويرضون بالتبعية لهم ودفع الضريبة تفاديا لشهرهم. وفي عهد أبي محمد عبد الله بن محمد الثابتي قوي نفوذ الأتراك، فاضطر إلى إجراء اتفاق سري معهم تحت ضغط سكان مدينة "تلمسان" وعلمائها، وصادف ذلك انشغال الإيبان بأوضاعهم الداخلية، فسلم من شهرهم إلى أن توفي سنة (947هـ/1540م) (47).

وكان أبو محمد عبد الله قد ترك ولدين أبو عبد الله محمد وأبو زيان أحمد، فثار هذا الأخير على أخيه بتشجيع من الأتراك و العلماء تلمسان فخلعه، فاستجار أبو عبد الله محمد بالإيبان، فأمدده الملك كارلس الخامس بجيش وأرسله إلى تلمسان، لكن ذلك الجيش انهزم قرب عين تيموشنت سنة (950هـ/1543م)، فعمل الإيبان على حشد الجيوش على لأخذ بالثأر لقتلهم، فأغاروا على تلمسان، واحتلوها و قتلوا معظم أهلها، وأعادوا أبا عبد الله محمد على عرش تلمسان، ثم جمع أبو زيان كثيرا من أنصاره وقدم بهم تلمسان، ولكن أبا عبد الله محمد خرج عليه وهزمه، ولما عاد إلى تلمسان أغلق أهلها الأبواب دونه وطرده واستقدموا أبا زيان وأعادوه على عرش تلمسان، وبقي حليفا للأتراك إلى غاية وفاته سنة (957هـ/1550م) فخلفه أخوه الحسن (48).

وكانت الدولة الزينانية آنذاك عبارة عن منطقة صغيرة تشمل تلمسان والمدن المجاورة لها، وكانت السواحل الغربية تحت سلطة الإيبان، فكان ذلك يجرمها من أهم مواردها التي كانت تأتيها من تجارة الموانئ، وأصبحت مطمعا للسلطان السعدي محمد بن محمد بن أحمد الشريف ملك مراكش، ففي سنة (957هـ/1550م) جهز جيشا بقيادة ابنه حران وأرسله لفتح تلمسان ونزعها من أيدي الأتراك وذلك بطلب من سكان مدينة تلمسان فبسط نفوذه عليها سنة

(958هـ/1551م)، ثم واصل السير نحو مدينة مستغانم بعد انسحاب الأتراك منها فدخلها، وعين عليها أحد الأمراء المغاربة وترك عليها 700 فارس وبعض رماة البنادق، ثم قفل راجعا إلى مدينة فاس، لكن الأتراك أعادوا الكرة في عهد حاكم الجزائر صالح رايس، وطردوا جيشه، وجعلوا حدًا لإغارته، ودخلوا إلى مدينة تلمسان، بل وصلوا الفتح نحو مدينة فاس ففر صاحبها محمد بن محمد الشريف السعدي إلى مراكش فدخلها الأتراك بقيادة حسن قورصو وأميرها المخلوع أبي حسون المريني (49) برفقة الأمير دبدو متزينين بحلي فاخرة كل واحد بطراز بلده (50). وأخيرا قرّر الأتراك خلع السلطان الحسن بن عبد الله بن محمد الثاني، آخر أمراء بني زيان سنة (962هـ/1554م)، وبذلك انقرضت الدولة الزيانية، وانتهى مجد تلمسان حاضرة المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة (51).

2 - تطور خطط مدينة تلمسان:

أ - أصول التسمية لمدينة تلمسان:

أطلق البربر اسم أغادير على مدينة بومارية، بعد أن نجحوا في تقويض نفوذ الرومان والوندال والبيزنطيين، وأغادير تعني باللغة العربية الجدار القديم، والمدينة المحصنة ويشير المعنى الأول إلى أنها مدينة قديمة أزلية، أما المعنى الثاني أن أغادير كانت مدينة لكنها تغير المسمى المؤسسة حينئذ في ذلك الإقليم. فلا شك أنها كانت مصرا بالنسبة إليها، وكانت محصنة كأنها قلعة يحيط بها الأسوار والأبراج المنيعة (52).

ويؤكد أبو عبد الله محمد بن مرزوق المشهور بالحفيد من كبار علماء مدينة تلمسان (766هـ - 1364م / 842هـ - 1438م) تسمية تلمسان بلد الجدار من خلال نظمه:

بلد الجدار ما أمر نواها كلف الفؤاد مجبها وهواها

يا عاذلي كن عاذري في حبها يكفيك منها ماؤها وهواها (53)

ثم سميت مدينة تلمسان (54)، ويقول الدكتور لعرج عبد العزيز: " ... تلمسان في إسلامها كانت تسمى بأجادير... " (55). وهي كلمة بربرية تعني الصخرة، وتمتعن في موقعها يدرك أصل التسمية، فمحيطها كتل حجرية، ومنشأتها تقوم على كتلة صخرية. ومن الملاحظ أن غالبية الجغرافيين والمؤرخين المسلمين يطلقون اسم تلمسان على هذه المدينة، وهي أيضا كلمة بربرية، مكونة كلمتين **تلم** ومعناه تجمع، و**سان** معناه اثنان، أي أنها تجمع بين التل والصحراء وهذا ما أشار إليه مجموعة من المؤرخين والجغرافيين (56) منهم يحيى بن خلدون نقلا عن شيخه أبي عبد الله محمد الآبلي، وذهب المقري إلى هذا التعريف نقلا عما ذكره يحيى بن خلدون بقوله: " ... ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن كلمة مركبة من **تلم** ومعناه تجمع، و**سين** ومعناه اثنان: أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي (57) رحمه الله، وكان حافظا بلسان القوم، ويقال تلمشان، وهو أيضا مركب من **تلم** ومعناه لها و**شان** أي لها شأن... " (58) وفي نفس المنحى وصف ابن الخطيب مدينة تلمسان بقوله: " تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه... " (59).

ب - العمران مدينة تلمسان في الفترة الإدريسية:

برزت مدينة تلمسان منذ الفترة المبكرة للفتح الإسلامي، إذ دخلها أبو المهاجر دينار (55- 59هـ / 675-678م)، الذي ولي أمر إفريقية بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية، وبه سميت عيون أبي المهاجر قريبا منها، وأثناء فتنة الخوارج بالمغرب الإسلامي انصرف إليها أبو قرّة اليفرني فارا من طبنة سنة (140هـ / 757م)، حيث اتخذها عاصمة لدولته الصفرية وسمي الباب الغربي على اسمه، ويقول في ذلك البكري: " في الغرب باب أبي قرّة. " (60). تعد هذه الفترة غامضة من تاريخ العمران والعمارة بتلمسان، وهذا في غياب الشواهد الأثرية، والمصادر الكتابية.

ويبدو من الوهلة الأولى أن الأدارسة حين دخولهم لتلمسان نزلوا بمدينة أعادير، وهي أول تجمع سكاني، وفي انعدام الشواهد المادية يمكن الافتراض أنها المدينة التي نزلها أبي قرّة البفريي ولما خلص إليها الأدارسة في عهد إدريس بن عبد الله سنة (174هـ/789م)، وكان محمد بن خزر بن صولات أميراً عليها وعلى قبيلة زناتة مكنه من الدخول إلى تلمسان صلحا، فاخترت إدريس بن عبد الله المسجد الجامع بأعادير وصنع له منبرا وهي النواة الأولى لتطور المدينة، ومكث بها شهرا ثم قفل راجعا إلى مدينة فاس، وكانت في هذه الفترة تعرف بباب إفريقية، ويذكر ابن أبي زرع أنّ هارون الرشيد لما سمع بفتح الأدارسة لتلمسان اغتم لذلك غما شديدا وقال لوزيره: "...أنه ولد علي بن أبي طالب.... قد قوي سلطانه وكثرت جيوشه، وعلا شأنه، واشتهر أمره واسمه، وفتح مدينة تلمسان، وهي باب إفريقية، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار." (61)، وبعد وفاة إدريس عبد الله ضعف شأن الأدارسة إلى غاية إحياء دولتهم من طرف إدريس بن إدريس بن عبد الله واجتمعت إليه القبائل البربرية، فنهض إلى تلمسان سنة (199هـ/814م)، فجدد مسجدها وأصلح منبرها وأقام بها ثلاثة سنوات (62)، والمسجد الجامع هذا المذكور في النصوص التاريخية هو مسجد مدينة أعادير ما بقي منه إلا أسوار أساساته وبقايا من حنية محرابه، واستعمل في بنائه بقايا من حجارة مهذبة تعود إلى الفترة القديمة كما تبدوا عليا أثارا من الكتابة اللاتينية.

إن إنشاء مدينة أعادير يعد الفعل العمري الأول للفترة الإسلامية المبكرة في المغرب الأوسط (63)، ومن خلاله مدينة تلمسان، وإن لم يتبق من المدينة الإسلامية إلا أطلال المسجد الجامع (المئذنة من الفترة الزيانية)، وبقايا من أسوار وجدران منازل وهي بقايا من حفرة منظمة التي أجريت سنة (1393هـ/1973م) إلى غاية (1400هـ/1979م)، ولكن من خلال وصف الذي قدمه الجغرافيين والمؤرخين يمكن تحديد التطور العمري للمدينة ولو بصفة تقريبية.

كانت مدينة أعادير كبيرة إذا ما قورنت بالمدن المنشأة في تلك الفترة (64)، إذ كانت تحتوي على سور يحدد مساحتها فتحت فيه خمسة أبواب على شاكلة المدن الإسلامية، حيث يصفها

الحميري بقوله: " ... ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوخة وفي المشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرّة، وفيها بقية من النصرى ولهم بها كنيسة معمورة.... " (65)، ويؤكد البكري هذا الوصف بقوله: "... وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة، وفي الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرّة، وفيها لأول آثار القديمة، وبها بقية من النصرى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة وكان الأول قد جلبوا إليها الماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال، وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار عليها الطواحين وهو نهر سطيف وهي دار مملكة زناته وموسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الأفاق، ونزلها محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب الذي بنا جراوة وكان أميرها وبها توفي، ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله.... " (66).

يبدو من خلال وصف البكري أن مدينة أغادير كانت موجودة قبل دخول الأدارسة إليها، حيث كانت دار مملكة المغراويين الزناتيين حيث استوطنوا المدينة القديمة البيزنطية كما استعملوا الحجارة القديمة في مساكنهم وكذلك بقايا جدران بيت الصلاة، وهذا ما تؤكد الحفريات التي أقيمت بالموقع الأثري بين سنتي (1393هـ / 1973م) إلى غاية (1400هـ / 1979م) (67). ومن بين أهم الأمور التي ساعدت مدينة أغادير على التطور وكثرة الأسواق فيها هو وقوعها بين مفترق الطرق، خاصة الطريق الجنوبي القادم من سجلماسة (طريق الذهب)، وهذا ما جعلها مطمع للدويلات الناشئة بالمغرب الإسلامي.

ج - عمران مدينة تلمسان في الفترة المرابطية والموحدية:

بعد سقوط الدولة الإدريسية على يد الفاطميين سنة (319هـ / 931م)، تأثرت المدينة بالصراع السياسي والقبلي الذي كان بالمغرب الإسلامي خلال هذه الفترة، حيث سعى الأمويون أمراء الأندلس على بسط نفوذهم بالمغرب الإسلامي وقطع الطريق على الفاطميين، في

حين أراد هؤلاء توحيد المغرب الإسلامي جغرافيا ومذهبيا، فأدخلوا في هذا الصراع القبائل البربرية خاصة الزناتية والصنهاجية، ودام هذا الصراع إلى غاية ظهور المرابطين على الساحة السياسية. يبدو أن المدينة لم تتسع خارج محيط أغادير إلى غاية الفترة المرابطية، وهذا بسبب الصراع ولا أمن الذي عرفته منطقة المغرب الأوسط عموما ومدينة تلمسان خصوصا، وقد دام ذلك من سنة (219هـ / 834م)، وهي السنة التي تغلب فيها موسى بن أبي العافية على أميرها حسن بن أبي العيش إلى غاية دخول يوسف بن تاشفين إليها سنة (473هـ / 1082م)، و يقول في ذلك ابن خلدون: "...ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغرارة وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي بها في عساكر المرابطين، فصارت ثغرا للملكة و نزل بعساكرة، و اختط بها مدينة تاكرات بمكان محلته و هو اسم المحلة باللسان البربري....." (68).

بدخول المرابطون تلمسان توسعت مدينة أغادير نحو الغرب، حيث أسسوا فيها مدينة جديدة أطلق عليها تكرات أو تجرات و تعني المحلة أو المعسكر بلسان صنهاجة، و قد ذكر ذلك يحيى بن خلدون (69) في كتابه "بغية الرواد...."، و أطلق عليها ابن مرزوق (70) بالبلد العليا، و ذكرت باسم تلمسان الحديثة عند عبد الله التنسي (71)، فقد أراد يوسف بن تاشفين أن يجعل مدينة تلمسان قطبا هاما من أقطاب الدولة المرابطية (72)، فأسس المسجد الكبير وسورا جديدة يضم المدينة القديمة أغادير و المدينة الجديدة تكرات، و فتح فيه خمسة أبواب، أربعة أبواب جديدة وأبقى باب العقبة، وبالتالي أصبحت أبواب تلمسان كالتالي: باب الجياد في الناحية الجنوبية، و باب العقبة في الناحية الشرقية و باب الجلوس و باب القرمدين في الناحية الشمالية، و باب كشوط في الناحية الغربية، و قدم لنا ياقوت الحموي وصفا هام حيث يقول: "...هما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر، إحداها قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطها الملمثون ملوك المغرب واسمها تافرزت (كذا) (تاكرات) فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، وإسم القديمة أقادير يسكنها الرعية... (73)، وما يمكننا أن نستنتج من

نص ياقوت الحموي أن مدينة أغادير تحولت في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إلى حي من أحياء المدينة الجديدة.

أنشأ السكان والوافدين إليها في هذه الفترة دورا جديدة في مدينة تكرارت، وهذا ما أشار إليه ابن مرزوق عند تطرقه إلى هجرة المرازق الأوائل إلى تلمسان عند حصار المرابطين لها (74). وفي غياب النصوص التاريخية التي تؤكد ذلك أتساءل هل مسجد أغادير تحول إلى مسجد

لحي أغادير في حين أصبح المسجد المرابطي هو المسجد الجامع لمدينة تلمسان؟

وحول هذا المسجد بنيت الدور والمرافق الاجتماعية المرتبطة بتوسع المدينة، وفي هذه الفترة بدأت التأثيرات الأندلسية تبرز واضحة المعالم على العمارة الإسلامية بالمغرب الإسلامي، وتأكدت الصلة بين الأندلس والمغرب الأوسط، وتدعمت العلاقات بين القطرين، وقد استفاد المغرب الأوسط كثيرا من الناحية الحضارية والعلمية، إذ الأندلس كانت تزخر بالعلم والعلماء، ثم إن هجمات النصارى على أراضي المسلمين التي ازدادت خطورة بعد سقوط الدولة الأموية بقرطبة، وتشتت السلطة السياسية أيام ملوك الطوائف، قد أدت إلى هجرة كثير من علماء الأندلس إلى مختلف أقطار المغرب، فكان لذلك أثر كبير وملحوظ في تطور الحياة الفكرية والعمراية بها.

بعد وفاة يوسف بن تاشفين، خلفه ابنه علي بن يوسف، وفي عهده تعمق الأثر الأندلسي في الفنون المغربية مثلما يتضح ذلك في أعماله بجامع تلمسان، وجامع القرويين بفاس، وذلك الأمر يبدو طبيعيا فعلي بن يوسف كان أندلسيا أكثر منه مغربيا، حيث نشأ "بالأندلس"، وقضى معظم حياته فيها في أيام أبيه، وكانت أمه أندلسية فلا جرم أن يكون مرهف الإحساس، محبا للفن، ويشهد على ذلك رقة أعماله، وفخامة الزينة التي ظهرت عليها آثاره في جامع تلمسان (75)، حيث قام بتوسعة المسجد الجامع المرابطي، وتزيين بلاطته الوسطى ومحرابه. وفي عهد ابنه تدهورت الأوضاع السياسية بسبب ظهور الموحدين، حيث سعى تاشفين بن علي على الحفاظ على دولته، ولكنه توفي بوهران بعد حروب ضارية مع الموحدين سنة (541 هـ / 1146م).

في الفترة الموحدية تحول المغرب الأوسط إلى ساحة لصراع سياسي وعسكري بين القبائل البربرية والقبائل العربية، بالإضافة إلى ظهور بنو غانية وصراعهم العسكري مع الدولة الموحدية، ومع هذا كله اعتنى الموحدون بمدينة تلمسان كثيرا، وجعلوها مدينة محصنة تستعصي على كل طارق، واتسعت خططها وتجهزت لتكون عاصمة للزيانيين والمغرب الأوسط، ولما كان الأمن من شروط التطور والتحضر وتوسع خطط المدينة وهجرة العلماء والصناع إليها عمل عبد المؤمن بن علي على المآخات بين الموحدين وحي بني عبد الواد، ويصف لنا عبد الرحمن بن خلدون الأهمية التي أعطتها الموحدون لمدينة تلمسان بقوله: "... ولما غلب عبد المؤمن لمتونة، وقتل تاشفين بن علي بوهران خربها وخرب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها وذلك أعوام من المائة السادسة. ثم راجع الرأي فيها، وندب الناس لعمرانها، وجمع الأيدي على رم ما تثلم من أسوارها..... وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم إلى تحصينها وتشديد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها، والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بما والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور، وكان من أعظمهم اهتماما بذلك وأوسعهم فيه نظرا السيد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة ست وخمسين (الصحيح سنة 566هـ / 1170م) (76).... فشيء بناءها وأوسع خططها وأدار سياج الأسوار عليها... ولما كان أمر بني غانية وخروجهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين (581هـ / 1185م) ...وتخطوا مدينة الجزائر... تلافى السيد أبو الحسن أمره بإمعان النظر في تشييد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها، وسد فروجها، وأعماق الحفائر نطاقا عليها، حتى صيرها أمنع معقل المغرب، وأحسن أمصارها.... ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطتها تتسع، والصروح بما بالآجر والقرميد تعالی وتشاد... " (77).

ويفسر غياب الشواهد الأثرية التي ترجع للفترة الموحدية بمدينة تلمسان وبالمغرب الأوسط عامة إلى الفتنة التي أحدثها بنو غانية بالمغرب الإسلامي، حيث هدموا وغربوا جل مدن المغرب الأوسط، ويقول ابن خلدون في ذلك: "... وكان ابن غانية كثيرا ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة و يطرقها بمن معه من ناعق الفتنة إلى أن خرب الكثير من أمصارها مثل تاهرت

وغيرها....وتخطف الناس من السابلة وتخرب العمران ومغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدين مثل قصر عجيسة...ومرسى الدجاج والجعبات والقلعة، فلم تبصر بها نار ولا لفتحت بها لنافخ ضرمة، ولا صرخت لها آخر الدهر ديكة... " (78).

د - عمران مدينة تلمسان في الفترة الزبانية:

ولما نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسלטانهم، فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية، ووصفها السلطان يوسف الأول أمير غرناطة في رسالة أرسلها إلى أبي عنان المريني عند دخوله إلى تلمسان والمؤرخة في ربيع الأول من سنة (752هـ/أول ماي سنة 1351م) بقوله " فتح تلمسان وما أدراك ما تلمسان؟؟ قاعدة الملك ووساطة السلك وقلادة النحر، وحاضرة البر والبحر، أسندت إلى الليل ظهرا، وأفصحت بالفجر جهرا، وأصبحت للغرب بابا، ولركاب الحج ركابا، ولسهام الآمال هدفا ولدور العلماء والصالحين صدفا. حسناء تسبي العقول بين التقنع والسفور... وتبجحت بوفور العمارة ودار الجباية... " (79).

كما اتسعت المدينة خارج أسوارها وتشكلت مجموعة من التجمعات السكانية عبارة عن أرياض (80) خاصة حي العباد (81) الذي كان مقصدا للعلماء وطلبة العلم، وهذا راجعا أساسا لأمرين هامين، أولهما وجود ضريح العالم الرباني أبو مدين شعيب (82)، والمدرسة التي شيدها أبو الحسن المريني (83).

ويصفها حسن الوزان في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد وصفا دقيقا واسعا مشتملا على جميع المظاهر الحضارية لذلك قمت بإفراده كاملا: "...تلمسان مدينة كبيرة وهي عاصمة المملكة.... وكل ما يقال أنها كانت صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب أرشكول، وخصوصا بعد طرد جنود المنصور بن أبي عامر من المنطقة و قد توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها

سنة عشر ألف كانون على عهد أبي تاشفين، و بلغت حقا درجة عالية من الازدهار لكن تلمسان تضررت كثيرا من جراء الحصار المضروب عليها من طرف أبي يعقوب يوسف ثاني ملوك بني مرين الذي بنى مدينة أخرى شرق مدينة تلمسان ودام الحصار سبعة سنوات واستفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيل روجيو من القمح ثلاثين مثقالا، وسكورزو من الملح ثلاثة مثاقيل، ورطل لحم ربع مثقال، فلم يطق السكان تحمل مثل هذه المجاعة واشتكوا إلى الملك... وبعد مرور أربعين عاما جاء أبو الحسن رابع الملوك المرينيين بمدينة فاس فشيّد مدينة على ميلين غربي تلمسان وحاصر تلمسان بجيش كثير..... ولما ضعفت شوكة بني مرين، تكاثرت سكان تلمسان من جديد، حتى بلغ عدد دورهم المسكونة ثلاثة عشر ألف دار. وجميع الصنائع والتجارات بتلمسان موزعة على مختلف الساحات والأزقة.... لكن دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس، وتوجد بتلمسان مساجد (84) عديدة جميلة (85) ... لها أئمة وخطباء وخمسة مدارس حسنة جيدة البناء مزدانة بالسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية شيّد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس، وبها كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة لكنها ناقصة الماء بالنسبة لحمامات فاس وفيها فنادق نمط الإفريقي، منها اثنان لمقام تجار جنوة والبندقية، وحرارة تضم نحو خمسمائة دار لليهود.. وبالمدينة عدة سقايات، لكن العيون توجد خارج المدينة، بحيث إن العدو يمكنه أن يقطع الماء عنها بدون صعوبة، والأسوار في غاية الارتفاع و القوة فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جدا، مصاريحها مصفحة بالحديد، وقد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون وحراس و مكاسون والقصر الملكي واقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير على شكل قلعة، ويضم قصورا أخرى صغيرة ببساتينها وساقياتها، وكلها مبنية بكامل العناية و بأسلوب فني رائع، للقصر الملكي بابان أحدهما إلى البادية تجاه الجبل، والآخر إلى قلب الجبل المدينة حيث يقيم رئيس الحرس، وفي خارج "تلمسان" ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم المدنيون بسكنائها في الصيف، حيث الكروم المغروسة الممتازة تنتج أعنابا من كل نوع.... ولنرجع إلى المدينة، حيث يوجد بها قضاة ومحامون وعدد من العدول يتدخلون في الدعاوي، وكثير من الطلبة والأساتذة في مختلف المواد سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية، وتتكلف المدارس الخمسة بمعاشهم بكيفية منتظمة.

وينقسم أهل تلمسان إلى أربع طبقات: الصناع والتجار والطلبة والجنود، فالتجار أناس منصفون مخلصون جدا وأمناء في تجارتهم يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه.....والصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة ويحبون التمتع بالحياة، أما الجنود فكلهم ممتازون يتقاضون أجرة ملائمة إلى غاية إلى حد أن أقلهم رتبة ينال شهريا ثلاثة مثاقيل بسكتهم... وهذه أجرة الرجل وللفرس كأن كل جندي إفريقي مفروض أن يكون فارسا محاربا، والطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بائسة في مدارسهم لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إماما....." (86).

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة السياسية والعمراية حول مدينة تلمسان يمكن أن نستنتج ما يلي:

- تأثرت مدينة تلمسان منذ إسلامها بالأوضاع السياسية للمغرب الإسلامي، حيث كانت تابعة للدولة الإدريسية ولعاصمتها مدين فاس، ثم دانت للمرابطين والموحدين، إلى أن أصبحت قاعدة المغرب الأوسط في الفترة الزيانية، حيث اتخذوها عاصمة لدولتهم.
- عرفت مدينة تلمسان نهضة عمراية واسعة في الفترة المرابطية، حيث شرفها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بأمره ببناء مسجد جامع جديد التقى فيه على عهد ابنه علي بن يوسف الفن الإسلامي الأندلسي والمغربي وأثر فيهن فارتقى الفن المعماري في مدينة تلمسان وأصبح يضاهي المدن الأندلسية في العصر الوسيط.
- بتحول مدينة تلمسان إلى عاصمة الدولة الزيانية، كان لا بد على أمراء هذه الدولة خلق حراكا عمرايا واسع يضاهي مدينة فاس الجديدة المرينية.
- رغم الصراع السياسي العسكري الذي كان بين دول المغرب الإسلامي ما بين القرن السابع والتاسع للهجرة إلا أنّ عملية البناء لم تتوقف في مدينة تلمسان، فاستكثر فيها أمراء الدولة الزيانية المساجد والفنادق، والحمامات، والأسواق، وأصبحت مقصدا للعلماء والتجار، وأرباب الصنائع والحرف من الأفاق.

الهوامش:

- (1) تقع مدينة تلمسان غرب مدينة الجزائر العاصمة وتبعد بحوالي 600 كلم.ك.
- (2) عرفت المدينة في الفترة الرومانية باسم بوماريا Pomaria ومعناها البساتين، وذكر ذلك البكري بقوله: "... وفيها لأول آثار القديمة، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بما كنيسة ..."، وكانت هذه النواة التي أسست فيها المدينة الإدريسية أعادير. للمزيد من التفاصيل أنظر: - أبو عبيد البكري (توفي: 487هـ / 1094م)، كتاب المسالك وممالك، تحقيق: ديسلان، الجزائر، 1857م، ص 76.
- (3) للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، نشر عبد المنعم عامر، القاهرة، 1961م، ص 266. كذلك: - موسى لقبال، " تيار الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا ونتائجه "، في كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى غاية بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 20.
- (4) عبد الرحمن بن خلدون، (732 - 808هـ / 1332 - 1406م)، كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421هـ / 2000م، ج 4، ص 414.
- (5) كان المغرب الأوسط لزناتة، وسيادتها لقبليتين منها هما مغراوة، ويفرنن وموطنهما نواحي تلمسان إلى وهران إلى شلف شمالا وغريس من ناحية معسكر جنوبا، ورئاسة مغراوة كانت في صدر الإسلام لصولات بن وزمان، ثم أبه حفص، وكان من أعظم ملوك زناتة، وخلفه ابن خزر، ولعهده كان المغرب ثائرا على بني أمية، فأعتزل بقومه، وعظم شأنه وهلك في بداية الدولة العباسية، فخلفه ابنه محمد، وعلى عهده ظهر إدريس بن عبد الله. للمزيد من التفاصيل أنظر: - مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011م، ج 2، ص 415.
- (6) للمزيد من التفاصيل حول دخول الأدراسة إلى المغرب الإسلامي وأهم القبائل البربرية التي حملت لواء الدولة. أنظر: - مؤلف مجهول (ألف حوالي 712هـ/1312م)، مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوبايا، ط 1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2005م، ص 199.
- (7) للمزيد من التفاصيل حول نشأت الدولة الإدريسية أنظر: - ابن أبي زرع (توفي: 726هـ / 1326م)، الأيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، 1420 هـ / 1999 م، ص 21.
- (8) ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما تعلق بذلك من كلام، تحقيق سيد كسراوي حسن، ط 1، دار الكتب العلمية، لبنان، هـ / 2003م، ج 1، ص 371.
- (9) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 25.

(10) محمد بن الأعرج حسيني السليماني (1280هـ - 1344هـ / 1863م - 1925م)، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، ج2، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم: 3657د، رقم الميكروفيلم: 4779، الرباط، المملكة المغربية، ورقة 10.

(11) موسى ابن أبي العافية: مؤسس الإمارة المكناسية، بعد القضاء على آخر الأدارسة على يد "مصالة بن حبوس الصنهاجي"، حامل لواء الدعوة الفاطمية في المغربين الأوسط والأقصى سنة (312هـ / 925-926م)، عين "موسى بن أبي العافية" أميراً على المغربين، فقاتل الأدارسة، وأجلاهم عن بلادهم، قتل سنة (341هـ / 952م). للمزيد من التفاصيل أنظر: - يوسف علي بديوي، عصر الدويلات الإسلامية في المغرب والمشرق من الميلاد إلى السقوط، دار الأصاله، الجزائر، 1431هـ / 2010م، ط1، ص 135.

(12) للمزيد من التفاصيل حول نسب الدولة الفاطمية أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الواحد الوافي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، مصر، 2006م، ج1، ص210. وكذلك: - موسى لقبال، دور كتابة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5هـ / 11م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص 328.

(13) واد شلف: يتكون من فرعين يبلغ طول أحدهما 270 كلم، وينزل من جبل عمور، ويحمل على التوالي أسماء الأماكن التي يمر بها: وادي سيقج، ووادي البيضاء، وادي تاجوين، وادي بتين. والفرع الثاني يبلغ طوله 170 كلم، وهو يهبط من جبال تيارت، وعندما يتجه إلى الشمال الشرقي يتحول فجأة في الاتجاه الغربي، ويجتاز السهول التي تمتد بين الظهرة، وجبال النونريس، ثم يعود إلى الاتجاه الشمالي بعد غليزان، ويصب في البحر المتوسط على بعد 12 كلم بالشمال الشرقي لمدينة مستغانم، كان مسرحاً لمعارك عديدة في العصر الوسيط. للمزيد من التفاصيل أنظر: - مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص46.

(14) حول دخول المهدي بن تومرت إلى المغرب وبداية الدعوة الموحدية أنظر: - السليماني، المخطوط السابق، ورقة 58. كذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج6، ص 38. كذلك: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 208.

(15) للمزيد من التفاصيل حول دخول المهدي بن تومرت إلى المغرب وبداية ظهور الدعوة الموحدية أنظر: - السليماني، المخطوط السابق، ورقة 68. كذلك: - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: محمد العريان، ط3، (د ت)، ص 255.

(16) وهران: بنتها مغراوة بإذن من أمراء الأندلس الأمويين، وأن الذي بنها من مغراوة هو خزر بن حفص ابن صولات بن وزمار بن صقلاب، وأنّ الخليفة الأموي الذي أمر ببنائها هو عبد الرحمن بن الحاكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل

- خليفة الأندلسيين في القرن الثالث الهجري. للمزيد من التفاصيل أنظر: - الأغا بن عودة المازاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحيى بوعزيز، ط 1، دار المغرب الإسلامي بيروت، 1990م، ج 1، ص 85. كذلك: - البكري، المصدر السابق، ص 116.
- (17) ابن أبي زرع، المصدر سابق، ص 241. كذلك: - ابن الخطيب، المصدر السابق، ج 1، ص 388.
- (18) وقعت بالأندلس بين الأمير الموحد محمد الناصر بن يعقوب المنصور وملك الروم ألفنسو، وذلك بحصن عقاب من أرض الأندلس، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس عشر صفر من عام (609 هـ / 1212 م). كانت هذه المعركة من أشد البلاء، والرزية العظيمة التي فقد فيها المسلمون أغلبية المعاقل، والأراضي في الأندلس. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 315. كذلك: - مؤلف مجهول، مفاخر..... ص 208.
- (19) المزيد من التفاصيل حول الدولة الحفصية أنظر: - أبو العباس أحمد بن الشماخ (ت: 833 هـ / 1429 م)، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م، ص 15. كذلك: - محمد لعروسي المطوي، السلطة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1986 م، ص 12.
- (20) للمزيد من التفاصيل: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج 7، ص 162.
- (21) للمزيد من التفاصيل حول نشأت الدولة المرينية، وأهم أمرائها أنظر: - تقي الدين بن علي المقرئ (766 هـ - 845 هـ / 1364 م - 1441 م)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، ط 1، ج 1، دار المغرب الإسلامي، 1423 هـ / 2002 م، ص 112، 113. كذلك: - مؤلف مجهول، الذخيرة السنينة في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق: محمد بن أبي شنب، مطبعة جولد كرونل، الجزائر، 1920 م، ص 15. كذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج 7، ص 400. كذلك: - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 360.
- (22) مواطنهم من جبل الونشريس إلى غاية صحراء تلمسان، ويقول في ذلك عبد الرحمن بن خلدون: " وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلد المرية إلى جبل الونشريس إلى مرات الجعبات وصار التنخم لملك بني عبد الواد سبك والبطحاء، فمن قبليها بني توجين ومن شرقيها مواطن مغراة...". للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج 7، ص 117.
- (23) ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهد، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1429 هـ / 2009 م، ص 172.
- (24) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج 7، ص 164.
- (25) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 26.

- (26) للمزيد من التفاصيل أنظر: السليماني، المخطوط السابق، ورقة 125.
- (27) للمزيد من التفاصيل حول حصار مدينة تلمسان، وتأسيس مدينة المنصورة أنظر: - عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، دراسة في الفكر العمراني الإسلامي وتطبيقاته العلمية" عمرنا وعمارة وفنا"، ط2، شركة ابن باديس للكتاب، الجزائر، 2011م.
- (28) للمزيد من التفاصيل حول مقتل السلطان يوسف بن يعقوب المريني أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص 308.
- (29) محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 م، ص 108. وكذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص 191.
- (30) ابن أبي زرع، المصدر سابق، ص 528.
- (31) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص305.
- (32) مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج3، ص 736.
- (33) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص 142.
- (34) مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج3، ص736.
- (35) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج 7، ص160.
- (36) نفسه، ج 7، ص 216.
- (37) للمزيد من التفاصيل حول خروج أبي هو موسى الثاني من المغرب الأوسط والدخول إلى مدينة تلمسان، واستقبال هائل الذي خص به من طرف أهلها أنظر: - مؤلف مجهول، زهرة البستان في تاريخ بني زيان، السفر الثاني، مخطوط بمكتبة جامع مانشيستر، بريطانيا، ميكروفيل رقم: Ms: 79b / 283، ص 69.
- (38) هو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغماسن قبض عليه وعلى عمه أبي ثابت ووزيرهم يحيى بن داود ببحاية، وسيقوا إلى السلطان أبي عنان فقتل أبا ثابت ووزيره واستبقى محمدا وأودعه السجن، حتى إذا هلك وتأمر أمر المغرب أخيه أبي سالم امتن عليه وأطلقه من الاعتقال ونظمه بمجلس ملكه في مراتب الأعياص وأعدّه لمزاحمة ابن عمه أبي هو موسى الثاني. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص167، 168.
- (39) لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 91.
- (40) للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص244. كذلك: - عبد الحميد

حاجيات، أبو حمو موسى الزباني، حياته وآثاره، دار بن مرابط لنشر والتوزيع، الجزائر، 1432هـ / 2011م، ص 93.

(41) هو أبو ثابت الأول بن أبي تاشفين الثاني تولى حكم الدولة الزبانية سنة (795 / 1393م).

(42) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، 197.

(43) عبد الحميد حاجيات، "إحياء الدولة الزبانية"، في كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى غاية بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص399. وكذلك: - محمد لعروسي المطوي، المرجع السابق، ص 634.

(44) التنسي، المصدر السابق، ص 245. كذلك: - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1384هـ / 1965م، ج2، ص 189. كذلك: - عبد الحميد حاجيات، استمرار النفوذ المريني...، ص 425.

(45) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 36. وكذلك: - عبد الحميد حاجيات، خطر النصارى...، ص 455.

(46) مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج3، ص740.

(47) للمزيد من التفاصيل حول دخول الأتراك بقيادة عروج بارباروس إلى مدينة تلمسان أنظر: - مارمول كرنجال، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1989م، ج2، ص310.

(48) في العهد الذي كانت الأمور تسير على أحسن حال للمسيحيين في غرب المغرب الإسلامي، وفي إحدى قرى إقليم درعة ظهر رجل يقول على نفسه أنه من السلالة النبوية ويسمى محمد بن أحمد الشريف، ويلقب بالشيخ محمد، أكتسب شهرة كبيرة عند سكان منطقة درعة، وكان ذو علم كبير في علوم الطبيعة، وعلوم السحر، وأوفد ابنه أحمد ومحمد برسم خدمة السلطان مولاي أحمد الوطاسي المريني، وهنا تبدأ مسيرة الشرفاء السعديين مع السلطان والحكم. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ديكو دي طوريس (غادر المغرب سنة 985هـ / 1577م)، تاريخ الشرفاء، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، شركة النشر والتوزيع، المغرب، 1988م، ص14. كذلك: محمد الصغير الإفراي (توفي ما بين: 1154هـ - 1157هـ / 1742م - 1745م)، زهرة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: عبد اللطيف الشادلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1998م، ص28، 71.

(49) هو علي بن محمد بن محمد بن أبي زكريا الوطاسي، وكان يبيع بفاس سنة (932هـ / 1525م)، ثم فر إلى الجزائر في نفس السنة بعد أن خلعه ولد أخيه أحمد بن محمد. للمزيد من التفاصيل أنظر: - للمزيد من التفاصيل أنظر: - أحمد بن القاضي (مر بالجزائر سنة 994هـ / 1586م)، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق: محمد مرزوق، مكتبة المعارف، الرباط، 1986م، ج1، ص290. وكذلك: - محمد الصغير الإفراي، المصدر السابق، ص71.

(50) للمزيد من التفاصيل أنظر: - أبو قاسم الزياني (1147هـ - 1241هـ / 1734م - 1833م)، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق: رشيد الزاوية، مطبع المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1992م، ج1، ص 35. كذلك: - ديكو دي طوريس، المصدر السابق، ص 175.

(51) تكررت غارات الشرفاء السعديين على تلمسان، واستعصت عليهم مرارا، نذكر على سبيل المثال: في سنة (1068هـ/1657م) خروج محمد بن المسن البركة لحصار مدينة تلمسان، ويقول محمد بن الطيب القادري: "...ونزل أمير المؤمنين أمير سجلماسة وأعمالها أبو عبد الله مولاي محمد بن المسن البركة مولانا الشريف الحسني على مدينة تلمسان فحاصر بها عامل الأتراك الباشا شلبي ووقع بينهما قتال في 3 جمادى وطل حصاره لها ثم ارتحل عنها ولم يتم له أمر ولايته إياها." كما ذكر عدة محاولات لحصار مدينة تلمسان من طرف الشرفاء السعديين لكنها انتهت بالفشل. للمزيد من التفاصيل أنظر: - محمد بن الطيب القادري (ت: 1187هـ / 1773م)، نشر المئاني لأهل القرن الحادي والثاني، تحقيق: محمد حاجي وأحمد توفيق، مكتبة الطالب، الرباط، المغرب، ج2، ص 87، 295.

(52) للمزيد من التفاصيل حول التطور المعماري لمدينة تلمسان أنظر: - عبد الواحد ذنون طه، "التطور المعماري لمدينة تلمسان"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف"، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2001م، ص9.

(53) المقري أحمد بن محمد (986هـ - 1578م / 1041هـ - 1631م)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، لبنان، 1408هـ / 1988م، ج5، ص 433.

(54) محمد الطمار، تلمسان عبر العصور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص12.

(55) عبد العزيز لعرج، "مجموعة المنشآت المعمارية للسلطان المريني أبي الحسن بالعباد في تلمسان"، مجلة الدراسات التراثية، مخبر البناء الحضري للمغرب الأوسط، الجزائر، معهد الآثار، العدد2، 2008م، ص51

(56) للمزيد من التفاصيل أنظر: - لسان الدين محمد بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المغرب، 1976م، ص184، 185. كذلك: - لسان الدين محمد بن الخطيب، ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالرباط، الخزانة العامة سابقا، تحت رقم: 331 ك، رقم الميكروفيلم: A29 / 4237، الرباط، المغرب، ورقة 503. كذلك: - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج7، ص 102.

(57) الأبلي (توفي سنة 757 هـ / 1356 م): هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم عالم منطقي ورياضي، ولد بتلمسان سنة (681 هـ / 1280م)، وأصل أسرته من أبله (الأندلس)، نزحت إلى تلمسان، حيث كان والده من أعوان الأمير

يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية. أخذ العلم عن ابن الإمام واعتنى بالرياضيات والعلوم التجريبية وبرع في علم المنطق، وعين مدرسا رغم حداثة سنه. وفي سنة (700 هـ / 1302 م) فر من تلمسان عندما حاصرها جيش بني مرين، ثم توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج وفي طريقه مكث بالقاهرة، واتصل بعلمائها مثل ابن دقيق العيد. وأثناء عودته توقف بمدينة بجاية، ودرس بها مختصر بن الحاجب في الفقه. ولما بلغه أن حصار تلمسان قد انتهى قرر الرجوع إلى مسقط رأسه، وسمع ثانية من بن الأمام إلا أنه اختلف مع الأمير أبي حمو الأول فغادر تلمسان إلى فاس إلى مراكش وأخذ عن العلامة عباس بن البناء الرياضي المشهور في تلك الفترة، ومن أشهر تلاميذه عبد الرحمن خلدون ويحيى بن خلدون. ثم انتقل إلى جبال الأطلس لتدريس بطلب من أحد وجهائها مدة من الزمن، ثم عاد على فاس وواصل التدريس، إلى أن توفي في ذي

القعدة من السنة المذكورة أعلاه. للمزيد من التفاصيل أنظر: - المقرري المصدر السابق، ج5، ص244

(58) المقرري، المصدر السابق، ج7، ص133، 134.

(59) ابن الخطيب، ربحانة الكتاب....، ورقة رقم 503.

(60) أبو عبيد البكري المصدر السابق، ص 76.

(61) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 26.

(62) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر.....، ج 7، ص 156، 157.

(63) عز الدين بوجيوي، تطور العمران الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط (من القرن الثاني إلى القرن الثامن

للهجرة)، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2001م/ 2002م، ص206.

(64) نفسه، ص206.

(65) الحميري عبد المنعم (توفي حوالي: 900هـ/1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان

عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1975م، ص 135.

(66) البكري، المصدر السابق، ص 76، 77.

(67) كما نجدها في قاعدة المئذنة الزيانية، وبقاء هذه الحجارة إلى غاية هذه الفترة يدل أن المدينة القديمة كانت كبيرة.

للمزيد من التفاصيل حول نتائج حفريات أغادير أنظر: - معروف بلحاج، "حفريات أغادير الأثرية بتلمسان، قراءة في مراحل

التنقيب والنتائج"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، "منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف"، تلمسان

عاصمة الثقافة الإسلامية، 2001م، ص291.

(68) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر.....، ج6، ص 380.

(69) نفسه.

(70) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 147.

- (71) التنسي، المصدر السابق، ص 125.
- (72) عز الدين بوجياوي، المرجع السابق، ص 210.
- (73) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 44.
- (74) ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 147.
- (75) للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية معمارية، والفنية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 1999م، ص 475.
- (76) هي سنة (566 هـ / 1170م) ويقول يحيى بن خلدون: "... وابتدأ (البناء) سورها السيد موسى بن يوسف العسري بن عبد المؤمن بن علي سنة ست وستين وخمسائة وكمله وحصنه السيد أبو الحسن ابن السيد حفص بن عبد المؤمن في حدود إحدى وثمانين عند استيلاء أولاد غانية على بجاية والجزائر والمدينة...". للمزيد من التفاصيل أنظر: - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 91.
- (77) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، م 7، ص 161.
- (78) نفسه.
- (79) لسان الدين بن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1423 هـ. 2003م، ص 85، 86. كذلك: - أحمد العزاوي، الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن الهجري القرن 14م، دراسة تاريخية لديوانيات ربحانة الكتاب لابن الخطيب، ط 1، مطبعة الرباط، المغرب، 2008م، ص 76.
- (80) الرّيض: ما حول المدينة، قال بعضهم: الرّيض والرّيضُ، بالضم وسط الشيء، والرّيض بالتحريك، نواحيه وجمعها أرياض، والرّيض حريم المسجد. قال ابن خالويه: رُيُضُ المدينة، بضم الراء والباء، أساسها، وبفتحتها: ما حولها، وفي الحديث: أنا زعيم بيت في ريض الجنة، وهو بفتح الباء، ما حولها خارجا عنها تشبيها بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع، ومنه حديث ابن الزبير وبناء الكعبة: فأخذ ابن مطيع العتلة من شقّ الرّيض الذي يلي دار بني حُميد. أنظر: - ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، تحقيق عامر احمد حيدر، ط 1، ج 1-ج 11، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003م، ج 4، ص 30.
- (81) يقول حسن الوزان: " العباد مدينة صغيرة شبه ريض، تقع على بعد نحو ميل من مدينة تلمسان و هي كثيرة الازدهار وافرّة السكان و الصناع، و معظمهم من الصباغين، و بما دفن ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في المسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات، و يعظم أهل تلمسان و البلاد المجاورة لها هذا الولي كثيرا ويستغيثون به ويتصدقون عنده كثيرا لوجه الله، و يسمى سيدي مدين، و هناك أيضا مدرسة جميلة جدا، و فندق لإيواء الغريب أسسهما بعض ملوك فاس من بني مرين، حسبما يقرأ ذلك في الرحاميتين المنقوشة عليهما أسماءهما". للمزيد من

التفاصيل أنظر: - حسن الوزان (عاش خلال القرن 10هـ/ 16م)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ج 2، ص 24.

(82) هو شعيب بن الحسين الأندلسي، شيخ المشايخ، وسيد العارفين، وقدة السالكين توفي بتلمسان سنة (594هـ/ 1197م). للمزيد من التفاصيل حول ترجمته أنظر: - المقري، المصدر السابق، ج 7، ص 136.

(83) بنيت المجموعة المعمارية من طرف أبي الحسن المريني تكرما لأبي مدين بن شعيب وهو ولي صالح أصله من إشبيلية ودفن بعين المكان خلال القرن (6هـ/ 12م). وقد ساهم في نشر وإشعاع التصوف ببلاد المغرب. تضم هذه المجموعة الهندسية مسجدا وضريحا ومدرسة وحمامات. بني المسجد بأمر السلطان المريني أبي الحسن سنة (739هـ/ 1339م) كما تدل عليه النقيشة الموجودة فوق الباب مكتوبة بخط نسخي أندلسي: " الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله ابن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعهم الله ابن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق أيده الله ونصره به". يعد المسجد من أهم منجزات الفن المغربي - الأندلسي بتلمسان مساحته 537,70م². يتشكل المدخل الرئيسي للمعلم من باب كبير يؤدي إلى بهو مزين بألواح جبسية منقوشة بإتقان وتعلوه قبة ذات مقرنصات. يتم الوصول إليه بواسطة درج كسيت الأبواب الخشبية بالبرونز، وهي تؤدي إلى داخل صحن مستطيل تتوسطه نافورة ماء وتحيط بمجنباته أروقة تشكل في الجهتين الغربية والشرقية امتدادا لبلاطات قاعة الصلاة والتي يغطيها سقف مائل ذو تجويفات وزخارف هندسية من النجوم والأشكال المتقاطعة والوردية. تتكون هذه القاعة من خمس بلاطات موازية لجدار القبلة تنقسم إلى ثلاث أساكيب وتتكى على بلاط متعامد مع القبلة، وترتكز العقود على دعائم مزين جزؤها العلوي بتوريق عربي، والمخرب عبارة عن غرفة صغيرة تغطيها قبة ذات مقرنصات، والعقد الذي يمكن من اللوح إليها ذو شكل بيضوي جد متجاوز، وهو يرتكز على أعمدة ذات تيجان مركبة تحمّل تأثيرات الفترة القديمة وهي مزينة بإفريز يحمل كتابات وبكتف العقد المنمق بغصنات يندرج داخل إطار مستطيل تعلوه ثلاث شمسيات جبسية دقيقة الصنع، وبالزاوية الشمالية الشرقية للباب تلتصق المئذنة المبنية من الآجر والمكسوة بالزليج، أما بدعها المربع الزوايا طوله 27,50 م، والمتوج بشرفات مسننة والذي يعلوه الجوسق، وهو مزين بلوحات مستطيلة تضم في الأسفل عقودا متعددة الفصوص وفي الأعلى تنتشر شبكة من المعينات الناجمة عن تداخل عقود منحنية. وهي متوجة بإفريز من الزخارف الوردية المصنوعة من الزليج. للمزيد من التفاصيل أنظر أطروحة الدكتوراه حول العمارة المرينية في مدينة تلمسان: - عبد العزيز لعرج، العمارة المرينية...، ص 300.

(84) تشتهر مدينة تلمسان بعدد كبير من المساجد تعود إلى الفترة الوسيطة، حيث تعتبر من أرقى ما وصل إليه العماري المسلم بالمغرب الأوسط، بالإضافة إلى التأثير الأندلسي الفني، والذي يتجلى بشكل كبير في عمارة المساجد بمدينة تلمسان ومنها القائمة ومنها المندثرة، ولقد تصدى للتدريس في هذا المسجد أجيال من العلماء والفقهاء، والأدباء والمشرعين واللغويين من ضمنهم الشيخ عبد السلام التونسي شيخ عبد المؤمن بن علي، وكذلك الشيخ إبراهيم الأبي، وابن خلدون، وعبد الرحمن الدواوي، والسوسني وابن زكري وغيرهم من العلماء الأبحار، كما تخرج منه عدد كبير من

طلبة العلم على اختلاف تخصصاتهم و تعدد بلدانهم خاصة في العصر الوسيط على أيام الدولة المرابطية، والموحدية، والزيرية.

(85) من بين أجمل المساجد في مدينة تلمسان نجد مسجد سيدي أبي الحسن، حيث يقع شرق جنوب المسجد الكبير المرابطي، و غرب مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، شيده السلطان أبو سعيد عثمان ابن يغمراسن أحد أمراء بني زيان في سنة (696هـ / 1297م) تكريماً للذكرى الأمير أبي عامر إبراهيم، حسبما نصت عليه النقوش المثبتة على الجدار الغربي للمسجد، والمكتوبة على صفحة من المرمر الأخضر بخط أندلسي أنيق، أنه تذكارة للأمير أبي عامر إبراهيم بن أبي يحيى يغمراسن بن زيان الذي أوصى ببناء هذا المسجد قبل وفاته وحبس عليه بعض أمواله العقارية، علماً أنه يحمل اسم الولي أبي الحسن بن مخلف التنسي أحد مشاهير العلم في تلمسان ليدرس فيه فاستمر في أداء رسالته إلى غاية الاحتلال الفرنسي، فحواله الفرنسيون إلى متحف الفن الإسلامي، و مازال كذلك إلى اليوم يشهد على روعة وازدهار عمارة المساجد بتلمسان، فهو وعلى صغر حجمه وقربه من المسجد الكبير إلا أنه يلفت نظر الزائر إليه لكونه تحفة نادرة، تحول إلى متحف مدينة تلمسان ثم إلى مدرسة في الفترة الاستعمارية، حالياً أتخذ متحفا للفن الإسلامي. المسجد عبارة عن مخطط مستطيل الشكل مساحته 100م²، له ثلاثة أبواب، قاعة صلاة به مقسمة إلى ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة، يفصل بينها صفان من الأعمدة تترابط فيما بينها بعقود حدوية الشكل، وسقفه خشبي جملوني على شكل أروقة طويلة قائم على ستة أعمدة عالية و رقيقة صنعت من الرخام الأبيض، أما جدرانه فقد كسييت بالجص في غاية من الجمال بزخرفة قوامها العناصر النباتية و الهندسية و الكتابية متداخلة في مابينها مشكلة بذلك أرقى ما وصل إليه فن التوريق العربي (الأرسك)، وأما المحراب فهو عبارة عن حنية سداسية الأضلاع، ويشكل قطعة أثرية كاملة مع رقة و صفاء الخطوط وتشابك جميل للرموز و مجانس دوائره، وتنوع زخارفه التي نقل السلطان أبو سعيد عثمان إلى تلمسان كثيراً من عناصرها الأندلسية، ومنها الزليج، و يعتبر صورة طبق الأصل لمحراب جامع قرطبة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - عبد العزيز لعرج، "جمالية الزخارف النباتية في الفن الإسلامي بجماعي تلمسان وسيدي بلحسن"، أعمال ملتقى دولي بتلمسان أكتوبر 2011م، "منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف"، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2001م، ص 205.

(86) حسن الوزان، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 17، 18.